رائية المخبل بن أبي ربيعة

دراسة فنية أسلوبية

المصطفى المرابط

شبكة الألوكة
www.alukah.net

البلد: المملكة المغربية

نوع المشاركة: مقالة أدبية

العنوان:

رائية المهلهل بن أبي ربيعة، دراسة فنية أسلوبية.

المصطفى المرابط

الدكتوراه في الآداب والعلوم الإنسانية

رائية المهلهل بن أبي ربيعة الرثائية، دراسة فنية وأسلوبية

تنتمي رائية المهلهل بن أبي ربيعة الرائعة إلى الشعر الجاهلي، وقد نظمها الشاعر في رثاء أخيه كليب، الذي انتزعته أيدي الغدر فجاءة، وقد جاء فيها:

أهاج قذاء عيني الإذكـــــــار ... هدوا فالدموع لها انحـــــــدار

وصار الليل مشتملا عـــــلينا ... كأن الليل ليس له نـهـــــار
وبت أراقب الجوزاء حـــــتى ... تقارب من أوائلها انحـــــدار
أصرف مقلتي في إثر قـــــوم ... تباينت البلاد بهم فغـــــاروا
وأبكي والنجوم مطلعـــــــات ... كأن لم تحوها عنـــــي البحار
على من لو نعيت وكان حيـــــا ... لقاد الخيل يحجبها الغبـــــار
دعوتك يا كليب فلـــــم تجبني ... وكيف يجيبني البلد القفـــــار
أجبني يا كليب خـــــلاك ذم ... ضنينات النفوس لها مـــــزار
أجبني يا كليب خـــــلاك ذم ... لقد فجعت بفارسها نـــــزار
سقاك الغيث إنك كنـــــت غيثا ... ويسرا حين يلتمس اليـــــسار
أبت عيناي بعـــدك أن تـــــكفا ... كأن غضا القتاد لها شفـــــار
وإنك كنت تحلم عن رجـــــال ... وتعفو عنهم ولك اقتـــــدار
وتمنع أن يمسهم لســـــان ... مخافة من يجير ولا يجـــــار
وكنت أعد قربي منـــــك ربحا ... إذا ما عدت الربـــح التجار
فلا تبعد فكل سوف يلـــــقى ... شعوبا يستدير بها المـــــدار
يعيش المرء عند بني أبـــــيه ... ويوشك أن يصير بحيث صاروا
أرى طول الحياة وقد تـــــولى ... كما قد يسلب الشيء المعار
كأني إذ نعى الناعي كـــــليبا ... تطاير بين جنبي الشـــــرار
فدرت وقد عشا بصري عليـــــه ... كما دارت بشاربها العـــــقار

سألت الحي أين دفنتمـــــوه ... فقالوا لي بسفح الحـــي دار
فسرت إليه من بلـــــدي حثيثا ... وطار النوم وامتنع القـــــرار
وحادت ناقتي عن ظل قبـــــر ... ثوى فيه المكارم والفخـــــار
لدى أوطان أروع لم يشنـــــه ... ولم يحدث له في الناس عـــــار
أتغدو يا كليب معي إذا مـــــا ... جبان القوم أنجاه الفـــــرار
أتغدو يا كليب معي إذا مـــــا ... حلوق القوم يشحذها الشفـــــار
أقول لتغلب والعز فيهـــــا ... أثيروها لذلكم انتصـــــار
تتابع إخوتي ومضوا لأمـــــر ... عليه تتابع القوم الحســـــار
خذ العهد الأكيد علي عـــــمري ... بتركي كل ما حوت الديـــــار
وهجري الغانيات وشرب كـــــأس ... ولبسي جبة لا تستـعـــــار

ولست بخالع درعي وسيفـــــي إلى أن يخلع الليـل النهـــــار
وإلا أن تبيـد ســـــــراة بكـــر فـلا يبـــــقى لهـا أبـدا أثـار[1]

يضيع الشاعر في بحر من الدموع المنحدرة والمنسكبة من دون توقف، بذهن هائم وبقلب منفطر يعتصره ألم الفرقة ووجع الافتقاد، حيث يظهر كئيبا محزونا وكأنه لأول مرة في حياته يرى الموت قريبا منه، ويلامس وجدانه ووجوده وكيانه، إذ رغم تمرسه في الحروب – فقد كان فارسا مغوارا له باع طويل في خوض أشرس المعارك – واعتياده على رؤية الأجساد المنطرحة تحت وقع ضربات السيوف في ساحات الحروب الطاحنة، ورغم اشتمامه رائحة الموت والقتل والفتك في أي طريق يسلكها على مدى حياته كلها منذ الصغر فقد تأثر في هذه المرة تأثرا كبيرا، ذلك أن حادث مقتل أخيه كليب بهذه الكيفية لم يدر في خلده يوما، كان بعيدا عن أسوأ توقعاته، من أجل هذا كانت صدمته فاجعة وحزن لها حزنا شديدا.

لقد وقف المهلهل في لحظة مثالية على قبر أخيه كليب منكسرا متوجعا محطم القلب، ومشتت الذهن، تجتاحه عاصفة من الحزن العميق. فالأكيد الذي لا اختلاف فيه أن الشاعر لم يسبق له من قبل، في أيامه السالفة أن جرب مثل هذا الشعور المأساوي القاسي، أو ذاق علقم الإحساس بالفراق الذي ألم به فجأة ومن دون توقع أو سابق إعلام، وألقى به في خضم التيه وآتون التأزم والحسرة، ولذلك كانت مرارة الألم أقوى من أن تصمد أمامها صخرة الإرادة والعزيمة أو يصدها صبر وجلد. كليب أخوه الذي كان رفيق دربه، بل كان بالنسبة له إنسانا أكثر من أخ تجمعه به آصرة القرابة والدم، كان ظهيره الذي يسنده ويحميه، ورفيقه الذي يمثل كل شيء في حياته، كليب هذا في لحظة أصبح جثة هامدة رابضة تحت التراب، أصبح في خبر كان، لقد ذهب وغادر المكان إلى الأبد مخلفا وراءه أثقالا وجبالا من الأحزان والآلام والجراح الغائرة.

وفي مستهل قصيدته ينقلنا المهلهل بن أبي ربيعة مباشرة بلغة مكلومة إلى عالم الحزن، الذي أضحى عالمه الخاص، وبحره العميق الذي لا مخرج له منه، وإلى حالة من الذكرى الأليمة التي باتت لا تفارقه، وتقض مضجعه وتمنع عنه النوم، وتجعله يقضي ليله باكيا ودموعه في انحدار دائم ومستمر لا يتوقف، حيث نلفيه يشبه هذه الذكرى الحزينة في البيت الأول من القصيدة بالقذى، الذي يتشكل في العين ويحرقها محدثا ألما يتسبب في نزول الدموع بشكل انعكاسي خارج عن الإرادة. لقد طال ليل شاعرنا ولم يعد معه للنهار وجود، لقد احتوى ليله نهاره، واستبدت بنفسيته الأحزان وحولت حياته إلى ظلمة حالكة دامسة لا نور فيها ولا مخرج منها ولا مفر، أحزان وآلام أمسى يقضي ليله إثرها وبسبب الأرق الذي تسببه له، في مراقبة النجوم ومتابعة مسيرها في الفضاء في تيه وشرود حزين. إنه يحاول أن يضعنا في صلب معاناته النفسية وأن

[1] ديوان المهلهل ص 28 – 32

ينقلنا إلى أعماق لواعجه وأحاسيسه الدفينة، يظل يبحث الليل كله في صفحة السماء السوداء عن أحبائه وتحديدا عن أخيه الأثير لديه، كليب الفقيد، الذي خطفته يد الموت الغادرة، وما يزال هائما يبكي بكاء حارا، بينما أسراب نجوم السماء طالعة في استرسال لا نهاية له، غير عابئة به وبما يعانيه ويكابده، وكأنها تخبره بسرمدية ليله البهيم والطويل، وبعدم جدوى انتظاره بروز نور نهار يوم جديد. وهذا أخوه كليب الذي لو كان مكانه، ووصله خبر موته هو – أي المهلهل – لكان جهز الجيوش وأعلن حربا ملحمية أسطورية لا نهاية لها على قاتليه، إلى أن يأخذ بثأره وينتقم لنفسه ويشفي غليله، هكذا كانت تحدثه نفسه المنكسرة وحادث صدمة الفراق المؤلم ما يزال يعتمل في قلبه وذهنه.

وفي صورة ملآى حزنا وألما يقول المهلهل:

دعوتـك يـا كليـب فلـم تجبـــني وكيـف يجـيبنـي البلد القفـــار

البلد القفار المقصود به هنا المكان القفر الخالي من الناس ومن كل ما من شأنه أن يبث الحركة والحياة، وربما يقصد به المكان نفسه الذي يمضي فيه ليله الحزين هذا، بجانب قبر أخيه الموحش، ويعني بقوله، الذي تستشف منه معاني الجراح: إنه ظل ينادي أخاه باسمه وقتا طويلا، لكن لا حياة لمن ينادي، والمفارقة النفسية الغريبة التي تدعو إلى شيء من التأمل والتأثر أن الشاعر كان يدعو أخاه باسمه وهو يعلم في قرارة نفسه وفي أعماق دواخله أنه لن يجيبه، وكيف لمن فارق الحياة وتجمد الدم في قلبه وتوقف الهواء في صدره وبات جثة هامدة لا حراك لها أن يجيب مناديه أو يرد على من يدعوه؟ وهذه الصورة تذكرنا بصورة مجالس العزاء التي يردد فيها أهل الميت في بكاء المناداة على الفقيد باسمه، وذلك تعبيرا منهم عن عدم قدرتهم تحمل موته وألم الفراق، وفي القصيدة تعكس هذه الصورة أ مقدار الحزن الذي خلفه رحيل كليب في نفس المهلهل، وتقرب القارئ من جهة ثانية إلى حالة الشاعر النفسية التي غدت متدهورة يسيطر عليها اليأس والوهن وفقدان الأمل، لكنه مع ذلك يستمر في جنون في المناداة، ولكن هذه المرة بنبرة الإلحاح الشديد في طلب الرد والحصول على الجواب، حيث يذكر حجم هول الصدمة، التي خلفها رحيل كليب في كل قبيلة تغلب العظيمة، فقد بكت عليه العيون وتألمت النفوس لرحيل وفقدان أشجع الفرسان وأكرمهم وأعظمهم مكانة ومنزلة وهيبة.

أجبني يـا كـليـب خـــــلاك ذم لقـد فجعـت بـفارسهـا نـــــزار

ثم يسترسل في النواح والبكاء والدعاء لأخيه كليب بالرحمة، ذاكرا خصاله ومناقبه، التي اشتهر بها بين أفراد قبيلته، وهذا هو التأبين الذي جرت عادة المعزين والمواسين لأهل الميت ذكره في مجالس العزاء، وهو الموقف

الحزين الذي لم تخل منه قصيدة من قصائد الرثاء، حيث يشكل جزءا لا يتجزأ من بنائها الفني، يصدح فيه الشاعر بخصال الفقيد وصفاته الجليلة القدر:

سقاك الغيث إنك كنت غيثا ... ويسرا حين يلتمس اليسار

أبت عيناي بعدك ان تكفا ... كأن غضا القتاد لها شفار

وإنك كنت تحلم عن رجال ... وتعفو عنهم ولك اقتدار

وكنت تمنع أن يمسهم لسان ... مخافة من يجير ولا يجار

لقد كان كليب أخ المهلهل رحيما، بل نموذجا في الرحمة وآية في خصلة العطف على الآخرين، كريما طاهر القلب يحب الخير لجميع الناس، كما كان الحلم والعفو والصفح عن الرجال عادته التي اعتادها، وخلقه الذي دأب عليه طوال حياته وميزه بين سائر أقرانه، ليس هذا فقط، بل لقد كان كليب كذلك رمزا للحماية والأمن ودفع الظلم والجور عمن يلجأ إليه، في مروءة منقطعة النظير وشهامة لا مثيل لها، وهذه في واقع الأمر خصال الإنسان العربي الجاهلي الحر، ذي الأصل والنسب العربي القح والأصيل، من أجل هذا كله كان يعد المهلهل موته بالنسبة إليه خسارة كبرى لا تضاهيها خسارة، ويشكل أكبر صدمة كان يتصور حصولها، ذلك أن القرب من واحد من رجال تغلب في مثل مكانة وقيمة وشأن كليب، ليعد صراحة كل الربح، كما أن فراقه والبعد عنه ليعد أيضا كل الخسارة.

وفي لحظة تأمل مثالية في موضوع الموت والحياة، يخاطب المهلهل أخاه كليبا ويبلغه رسالة عميقة مفادها أن ما أصابه قانون كوني شامل لجميع عناصر الطبيعة لا حول لنا ولا قوة أمامه، يسري على كل دابة تدب في الأرض وتتدفق في قلبها معاني الحياة. وفي لغة مليئة حكمة، وفي دراية عميقة بأسرار الوجود وبألغاز العالم وعناصره يتوجه إليه قائلا: إنما هذه الحياة التي نعيشها كشيء لا نملكه، نستعيره وقتا معينا، ثم نعيده لصاحبه، لقد كنت يا كليب فردا بيننا تحيى حياة طبيعية كسائر الناس، لكن يد الموت اختارتك وانتزعت منك هذه الحياة كما أخذتها قبلك من آباءك وأجدادك وأصحابك:

فلا تبعد فكل سوف يلقى ... شعوبا تستدير بها المدار

يعيش المرء عند بني أبيه ... ويوشك أن يصير بحيث صاروا

أرى طول الحياة وقد تولى ... كما قد يسلب الشيء المعار

لكن هول الصدمة كان كبيرا وغير محتمل، لذلك نلفي شاعرنا يعود في ثنايا قصيدته إلى الحادث المأساوي من جديد ويذكرنا به وبآثاره ووقعه العميق على نفسه، وفي هذه المرة، نجده يصور لنا بدقة لحظة تلقيه

للخبر الفاجعة من طرف أحد ندمائه، الذي لم يكن سوى أخ جساس بن مرة سبب الموت ومرتكب جريمة الغدر والقتل في حق كليب أخ المهلهل.

لقد كان المهلهل مع أصحابه منتشيا ومتلذذا في مجلسه الخمري المعتاد، عندما أتاه الناعي يخبره نبأ القتل، حيث اجتاحته في أول وهلة عاصفة من الغضب الشديد المصحوب بالصدمة المهولة، لقد تجمد الدم في عروقه، وتطايرت شرارات الغضب والشرور من صدره، وسيطرت عليه حالة من الاصطراع بين الاضطراب والفشل، اختلطت فيها مشاعر الحزن والتألم الشديد، بالغضب والحنق اتجاه مفتعلي هذا العمل الغادر والجريمة البائسة يقول:

كأني إذا نعى الناعي كليبـــا ... تطاير من جنبي الشـــرار

ومن آثار الصدمة، أنه فقد الإحساس بالزمان والمكان وبكل المحيط من حوله، وساء بصره ولم يعد يعرف ماذا حل به وكيف يتصرف أمام هول هذا النبأ العظيم، لقد بات في حالة كالسكران، الذي أفرط في شرب الخمر حتى غاب عقله وذهب وصار لا يقوى على السير أو الحركة والتركيز.

فدرت وقد عشا بري عليـــه ... كما دارت بشاربها العقـــار

ويريد الشاعر في البيتين الموالين أن ينقلنا إلى حقيقة صورة المشهد المأساوي، حيث جعل يسأل قومه بعد تلقيه الخبر المرير عن مكان الدفن، الذي كان بعيدا عن دياره، فقام يسير إليه حثيثا غير مصدق، قض مضجعه، فلم يعد يعرف للنوم ذوقا ولا لراحة البال معنى.

سألت الحي أيـــن دفنتمـــوه ... فقالوا لي بسفح الحـــي دار

فسرت إليه من بلدي حثيثـــا ... وطار النوم وامتنع القـــرار

لقد دفنت مع كليب كل القيم الجميلة وانتهت كل الأخلاق الكريمة، ورحلت كل الأنفس الطاهرة النقية، هكذا يصرخ هنا الشاعر المهلهل بن أبي ربيعة في ثورة بعد أن فارت فورته تحت وقع الحادث، يقول: إن كليبا هذا هو الفاضل الكريم، الذي لا عيب فيه ولا عار، الرحيم ذي الفضل، ومكانته بين قومه وقبيلته رفيعة عظيمة لا يضاهيه فيها أحد من بني جلدته.

ثم ينتقل شاعرنا في ختام قصيدته الرثائية إلى مرحلة إعلان الحرب على قتلة أخيه كليب، واتخاذه قرار الثأر والانتقام، الذي كان عرفا معمولا به وثقافة شائعة بين الجاهليين، وشكل أول ممارسة سيئة سعى دين الإسلام إلى القضاء عليها بعد الشرك بالله وتقديس الأصنام وغيرها من الطقوس التعبدية. وهكذا يعلن المهلهل أن غليله لن يشفى وأن النار المتقدة في قلبه لن تخمد أبدا إلا بالنيل من قتلة أخيه أو بإبادة بني بكر عن بكرة أبيها، وفي سبيل ذلك يعلن أنه سيترك داره، وسيغادر كل عاداته السيئة الفاسدة، سيهجر

الغانيات وسيتخلى عن شرب الخمر، وسيحمل معه سيفه فقط وسيرتدي درعه، الذي لن يخلعه حتى يخلع الليل النهار، وحتى تبيد بكر ولا يبقى لها أثر بين قبائل العرب، يقول في الختام بعدما امتلأ حنقا وغضبا وحزنا وألما:

خـذ العـهد الأكيـد علـي عمـري	بتركي كـل ما حـوت الديـــار
وهجـري الغـانيـات وشـرب كـأس	ولبسـي جبة لا تـستعـــار
ولسـت بخالـع درعـي وسيفـــي	إلى أن يخلع الليل النهـــار
وإلا أن تبيـد سـراة بـكـــر	فـلا يبقـى لـهـا أبـدا أثـــار

لقد عبر المهلهل في ثنايا هذه القصيدة وأبياتها ومن خلال صورها الفنية الموحية، عن رفض قاطع للحقيقة المرة التي تجرع سمها، حقيقة النهاية المأساوية غير المتوقعة لأخيه كليب، الذي كان شريفا مهاب الجانب، وذا شأن ومكانة. وقد جاءت قصيدته مشحونة بكلمات كلها شجن وألم وسفر في عالم الحسرة والرفض والثورة على حكم القدر.

التصوير الفني في رائية المهلهل بن أبي ربيعة

والحقيقة أننا عندما نقرأ هذه المرثية الرائعة ونعيد قراءتها مرات ومرات قراءة واعية مستنفرة للعقل والذهن، وعندما نتأمل لغتها المشحونة والدالة ونتوغل في ألفاظها وعباراتها الحارة سعيا لبلوغ ما خفي فيها من المعاني والأفكار، فإننا نستطيع منذ البداية تلمس حالة شاعرنا النفسية المأزومة والمضطربة، حيث تتبدى أمامنا في وضوح آلامه المؤرقة وجراحه الغائرة التي لن تندمل أبدا، وتصل إلى آذاننا صرخاته الباكية وآهاته الممتلئة حزنا وشجنا بسبب الفراق، ويتحقق لنا في الآن نفسه من خلال نبرات الثورة والانتفاضة التي تحيط بأجزاء القصيدة ومحاورها وعي بحالة الرفض والاحتجاج، التي كانت تسيطر على الشاعر تجاه موضوع الموت والقدر، الذي اختطف كليبا.

وقد ألفينا الشاعر يتكئ على بعض الصور الشعرية الدالة والموحية في حرصه على إيصال رسالة حالة التذمر وعدم الرضى بهذا الواقع المر، الذي حل به فجأة وخيم عليه وأضحى غذاءه الذي يتغذى عليه وهواءه الذي يتنفسه. وأكثر ما يثير نظر القارئ وهو يسبر أغوار هذه المرثية الرائعة ويتأملها ويسعى إلى اكتناه دلالاتها ويحاول اكتشاف طبيعة التصوير الفني فيها توافر صور التشبية وحضورها بكثافة، هذا العنصر الشعري، الذي أتى في القصيدة كوسيلة فنية تترجم إلحاح الشاعر وسعيه الحثيث إلى شرح وتقديم ما حل به من مصائب من أجل إفهام القارئ مقدار ما تسبب له فيه هذا الحادث من أوجاع، ولعل أول صورة للتشبيه تواجهنا في القصيدة قول الشاعر في بدايتها:

صـار الليـل مشـتمـلا علينـــا كـأن الليـل ليـس لـه نـهـــار

ففي غمرة الحزن الذي ألم به من كل جانب، وجد شاعرنا نفسه وحيدا في هذا العالم المقفر إلى جانب قبر أخيه الموحش في مكان قفر وخلاء تنعدم فيه أسباب الحياة وشروطها الطبيعية، ومن شدة صدمته وشرود تفكيره، وفي ظل انشغال ذهنه المستمر بألم الفرقة والفاجعة، تحول مفهوم الزمان لديه ولم يعد يعقب الليل النهار كما هي سنة الكون في العادة، أو كما يرى الإنسان في حالته الطبيعية هذه الظاهرة، ولكن صار الزمن عنده زمنا واحدا، زمنا التحفت فيه السماء ثوب السواد الأبدي، وافترشت فيه الأرض رداء القبور والموت والصمت المطبق. لقد شبه المهلهل في هذا البيت البديع صورة بصورة، فيما يعرف بتشبيه التمثيل، الذي يرغب الشاعر من خلال توظيفه التأثير في المتلقي وشد نظره وجعله يعيش الحدث ويحل محل بطله، و يفيد تشبيه التمثيل بلاغيا وفنيا توضيح المعنى وجعله أكثر عمقا، حيث شبه حالة الليل الطويل البهيم الجاثم على أنفاسه، بصورة الليل السرمدي المستمر، الذي لا يأتي بعده نهار، ساعيا من وراء ذلك إلى إثبات وتأكيد هول معاناته ووطأة وقع الحدث عليه، وربما يكون الشاعر فقد وعيه مدة من الزمن فلم يعد يدرك مفهومي الزمان والمكان بالشكل الصحيح، وقد يحدث هذا عادة في حالة الأزمات النفسية الحادة الناتجة عن التعرض للصدمة العنيفة ذات الوقع والأثر الكبير. ثم يتبع هذه الصورة بعد ذلك بصورة أخرى مماثلة، تتضمن نفس معنى اجتياح الليل اللانهائي فضاء الشاعر المكاني والزماني، يقول:

وأبكـي والنـجـوم مطـلـعـــات كـأن لـم تـحـوهـا عنـي البحـــار

فالشاعر هنا يبكي بحرقة بالغة، يبكي وهو ممدد في استلقاء مفترشا الأرض الباردة برودة غير عادية، بينما يسدد نظره إلى السماء المسودة، يرصد النجوم والأقمار المضيئة بعينين لا تريان شيئا وبذهن سارح في عالم الأحزان والحسرة، لقد تجمد كل شيء في عالمه وعادت النجوم الطالعة محكومة بالثبات أيضا، وكأنها تخبره أن لا نهار آت وأن ليله مستمر إلى الأبد. في البيت تشبيه تمثيلي كذلك، حيث أراد الشاعر أن يوصل إلى أذهاننا فكرة طول ليله، فشبه صورة النجوم الثابتة في مكانها وكأن البحر لم يحجبها كما يفعل كل يوم، ملحقا حالة السكون بالبحر أيضا، لتكتمل صورة الثبات المسيطر على الشاعر إثر الصدمة التي ألمت به. لكن إمعان المهلهل بن أبي ربيعة وهو يرثي كليبا في إظهار حالة البكاء الشديد قد يحمل معنى آخر، إنه معنى الرفض الرمزي لما حل به من مصيبة عظيمة، وهو رفض في العمق للموت كحقيقة مطلقة مرعبة يصعب استيعابها، وكمصير إنساني حتمي ينتظر كل دابة على الأرض تمشي الدماء في عروقها ويسري الهواء في جسدها، فالشاعر من جهة يدرك حقيقة الفناء الرهيبة، هذه النهاية المشتركة التي يقتنع بها كمصير إنساني محتوم فرضته الطبيعة الكونية ولا مفر من مجيئه يوما ما، لكنه في ذات الوقت يرفضها ولا يتقبلها، وذلك عندما تقترب منه حبالها أوعندما تخطف أقرب المقربين إليه، أخاه كليبا.

ويستمر المهلهل في البكاء دونما رغبة في التوقف، ويبدع مرة أخرى في تصوير مشهد الدموع المنهمرة من مقلتيه،

يقول:

أبت عيناي بعدك أن تكفـــــا كأن غضا القتاد لها شفـــــار

بعد رحيل كليب في الحادثة المأساوية المعروفة، امتنعت عين شاعرنا عن التوقف عن ذرف الدموع، فمازالت تنزل منسكبة وكأن شفار مقلتيه أضحت من شوك، ما يسبب له الألم ويؤدي إلى نزول الدموع. هكذا صور المهلهل حاله وقد استبد به الحزن والغم، وقد يكون يقصد بغضا القتاد، الذي نبت في شفار عينيه وغدا يتسبب له في الألم وفي نزول الدموع، الإشارة إلى مصيبته التي استحالت معها حياته بؤسا وألما وليلا مدلهما لا ينقشع ظلامه مهما مر من الزمن والوقت.

ومازال شاعرنا المكلوم يستعين بالتصوير الفني، ويتوسل دائما بعنصر التشبيه من أجل إيصال ما يعتمل في نفسيته من مشاعر وما يتضارب فيها من أحاسيس واضطرابات، وفي معرض بكائه على فقدان أخيه كليب، وفي غمرة تأبينه والتذكير بمناقبه وأخلاقه وصفاته العظيمة التي يتفرد بها عن سائر أفراد قبيلته، نلفيه في روعة فريدة يشبهه في أحد الأبيات تشبيها رائعا، وذلك حين يقول:

سقاك الغيث إنك كنت غيثـــــا ويسرا حين يلتمس اليســـــار

يدعو له بالرحمة، ويشبهه بالغيث كناية على كرمه الذي اشتهر به بين أفراد قبيلته، وهو تشبيه بليغ حذفت فيه كما نرى الأداة ووجه الشبه في آن واحد، بينما احتفظ بطرفي التشبيه فقط، ولعل من دلالات التشبيه البليغ الفنية، جعل المشبه والمشبه به في مرتبة واحدة متساوية، فكليب أخ المهلهل بن أبي ربيعة الفقيد ليس يشبه الغيث فقط، ولكنه هو الغيث نفسه. ولا شك أن ما دفع الشاعر إلى الاتكاء على هذا النوع من التصوير الفني هو شدة الحسرة الصادقة التي ملأت قلبه على فقد أخ عظيم وإنسان نبيل يتمتع بخصال وأوصاف ومناقب جليلة لا تعد ولا تحصى، ولا تجتمع في إنسان آخر غيره، إنها خسارة كبرى نزلت عليه كالصاعقة وألقت بظلالها على جميع القبيلة. ولا شك أيضا أن إحساس الرفض وعدم القبول، الذي اجتاح الشاعر بصدد قدره المحتوم هذا كان دافعا أيضا إلى المبالغة في مدح كليب وتصويره في أعظم صورة وفي أجمل حلة. فرفض الموت عنصر أساسي من عناصر قصيدة الرثاء، بل إن ما يطفح به فحوى هذا النمط الشعري من معجم البكاء وألفاظ الحزن والتحسر وما يتفاعل فيه من مشاعر إنسانية وانفعالات نفسية إنما ينهض دليلا على حقيقة الرفض التي تجيش في ذات الشاعر تجاه الموت، ويقوم دليلا بارزا على عدم الرضى والقبول بهذا الضيف الثقيل الذي يحمل الفواجع والمصائب.

لكن المهلهل مع ما أبداه من رفض شديد لما حل به من مصيبة، يضطر في النهاية إلى الإعلان عن إيمانه بقدره، وعن الاستسلام للأمر الواقع، ذلك أن الموت حقيقة يقينية لا مجال للاعتراض عليها أو رفضها، لهذا نجده ما يفتأ يسرح في ثنايا قصيدته في التأمل والحكمة. يذكر قائلا:

أرى طول الحياة وقد تولـــى كما قد يسلب الشيء المعـــار

فالحياة مهما طالت تظل في نظر الشاعر كالشيء المعار، الذي يلزمنا بعد مدة من الزمن رده إلى صاحبه، وهنا يعود للتشبيه التمثيلي حيث أقدم على تمثيل صورة فقدان الحياة أو الموت بصورة إرجاع الشي المعار إلى صاحبه، وهو تشبيه الغاية منه الاستفاضة في التعبير عن الفاجعة التي أحاطت بالشاعر وذهبت بلبه، وحولت حياته تحويلا جذريا من المتعة واللذة واللهو إلى حياة مليئة حزنا وعذابا وحقدا على القتلة ورغبة في الانتقام والثأر منهم.

ولما كانت مصيبة الشاعر أكبر وأقوى من أن يصطبر عليها قلب إنسان، أو من أن تحتويها صورة شعرية تشبيهية مهما بلغت دقتها وروعتها وجماليتها، فإننا نجد المهلهل بن أبي ربيعة يضطر في ثنايا قصيدته إلى الاعتماد على أسلوب الاستعارة أيضا في صوغ المعاني والأفكار للدلالة على الآلام التي يكابدها وللتعبير عن الأوجاع التي يعانيها ويسعى إلى إبلاغها للعالم كله، وذلك حين يقول في معرض ذكر مناقب أخيه كليب:

وحادت ناقة عن ظل قبـــر ثوى فيه المكارم والفخـــــار

فالذي ثوى في القبر على الحقيقة الواقعية هو جسد كليب أخ الشاعر، وليس المكارم والفخار كما جاء مذكورا في منطوق البيت، لكن المهلهل بن أبي ربيعة كان هنا في معرض مدح أخيه، حيث شبهه بالمكارم والأخلاق الفاضلة، فأخفى المشبه وذكر المشبه به، فيما يسمى بالاستعارة التصريحية. وكما هو مشهور فإن القيمة الفنية لهذا النوع من التصوير تكمن في رغبة الشاعر إيلاء الأهمية القصوى للمشبه به، وذلك بذكره عوضا عن المشبه، وهذا ما ينسجم مع المقام، الذي يوجد فيه المهلهل هنا في هذه القصيدة، حيث إن ما افتقده وترك في نفسه جرحا غائرا وعميقا ليس أخاه كليبا وحسب، ولكن تحديدا أخلاقه وصفاته الإنسانية العظيمة، التي كان يتحلى بها، وروحه الطاهرة الصافية الحليمة.

رائية المهلهل بن أبي ربيعة أسلوبيا

وبالنظر إلى الأساليب التي بنيت عليها القصيدة نجد أنها تتساوق مع فحواها ومضمونها العام ورسالتها، التي يصر الشاعر على بثها ونقلنا إلى أجوائها المشحونة والمضطرمة، لنكتشف منذ القراءة الأولية حضور الجمل الفعلية بكثرة، حيث نجد الأفعال فيها قد توزعت بين الزمن الماضي والزمن المضارع. وبالعودة إلى البيت الذي استُهلت به القصيدة، نلفيه قد ابتدأ تحديدا بفعل ماض (أهاج) وأردفه الشاعر في البيت الثاني بفعل

آخر ماض كذلك هو (صار). ولحضور الجملة الفعلية دلالة فنية ونفسية عميقة في الشعر عامة وفي الشعر الجاهلي بخاصة، فهي من جهة تبث الحركية والفعالية في المضمون وتجعله حيا متحركا حافلا بالأحداث مفعما بالنشاط لا مجال معها للملل أو الضجر، ومن جهة أخرى فهي تعكس بعدا نفسيا واضطرابا شعوريا وموقفا من عدم الاستقرار يجتاح الشاعر ويهز كيانه هزا. وتوظيف الفعل الماضي يحمل أيضا دلالة الانصرام والانتهاء والفناء، وهو في أصله إخبار بحدوث انكسار في مسار حياة كان عاديا ورتيبا، انكسار تحولت معه العلاقات مع المحيط واضطرمت اضطراما، ولم تعد كسابق عهدها، والمهلهل إذ يعمد في هذه القصيدة عن إصرار وعمد إلى الاتكاء على الفعل الماضي وتكراره في غير ما موقع (تباينت، نعيت، دعوتك، سقاك، كنت تحلم، كنت تعفو، سألت، طار النوم، حادت .....) إنما كان يريد أن يضعنا في صورة الأزمة النفسية المعتملة في صدره، حيث أناخ على قلبه حدث مقتل أخيه حزنا بالغا استحالت معه حياته حملا لا يطاق ووزرا لا يحتمل، حمل نفسي تنوء بثقله الجبال، وعذاب لم يجد من علاج له سوى النواح والبكاء بأعلى صوته وبكل ما أوتي من طاقة وجهد، وعبر لغة البوح شعرا بما يتفجر في داخله من شرارات الغضب وما يصطرع في أعماقه من شحنات الحقد والرغبة في الانتقام والأخذ بالثأر، والملاحظ أن هذه الأفعال الماضية تبدو كلها مرتبطة بكليب وبأوصافه وبما خلفه رحيله من صدمة وفراغ وألم ليس لدى أخيه المهلهل وحسب، ولكن لدى الشعور الجمعي في قبيلة تغلب بعامتها، فإحساس الافتقاد والتحسر هنا جماعي، كما أن رفض الموت الرمزي الذي تنطق به الحالة النفسية المهيمنة على فضاء القصيدة الرثائية عام وشامل.

وخلاصة القول إن الشاعر بهذا التوظيف للفعل الماضي إنما يخبرنا بانصرام حياة طبيعية عادية وهادئة كان يعيشها تحت مظلة وفي حماية أخيه كليب ذي المكانة العظيمة والمنزلة الشريفة بين قومه، وأن هذا الانصرام خلف لديه حزنا عميقا وتسبب له في جرح غائر لا علاج له.

غير أن الفعل المضارع في القصيدة قد كان أكثر حضورا من الفعل الماضي، وبعملية مسح إحصائية يتأكد لنا أن الشاعر قد أبدع في استعمال هذا الزمن، وأكثر منه، كما أنه جعله زمنه الخاص به وبأفعاله (أصرف مقلتي، أبكي، نعيت، يحجبها، يجيبني، يستدير، يعيش، يوشك، تطاير، أقول، يخلع، تبيد...) ويفيد الفعل المضارع بلاغيا ودلاليا وفنيا معنى التجدد والاستمرارية، وبتأويل هذه الدلالة حسب سياق قصيدة المهلهل بن أبي ربيعة نصل إلى أن شاعرنا كان يسعى من خلال هذا التوظيف الفني والجمالي إلى إثبات حقيقة الجرح الغائر، الذي حفرته في قلبه وتركته في نفسه حادثة مقتل أخيه كليب، وهو الجرح الذي لن يندمل أبدا، بل ستستمر مواجعه وآلامه المزمنة وسترافقه خلال ما تبقى من أيام عمره إلى أن يثأر لنفسه وينتقم من الذين ألحقوا به هذا الأذى البالغ أو إلى أن يصيبه سهم الموت في سبيل ذلك، ويلتحق هو الآخر إلى جانب أخيه كليب في عالم مجهول غير واضح المعالم يكسوه الغموض.

ولعل حالة القلق والاضطراب النفسي وصيحة الحزن والألم التي يكابدها شاعرنا ويتجرع مرارتها تؤكدها في القصيدة أيضا بعض الأساليب الإنشائية، التي لم يخل منها النص، حيث نقف عند الحضور اللافت لأسلوب الأمر، وذلك في قول الشاعر: (أجبني يا كليب خلاك ذم، أجبني يا كليب خلاك ذم، أثيروها لذلكم انتصار، خذ العهد الأكيد...) وأسلوب الأمر كما هو مشهور من أساليب الإنشاء الطلبي، يحمل دلالة الالتماس والطلب، وهكذا فإن الشاعر من خلال متنه الشعري يلتمس من القارئ مواساته في مصابه ومساندته ويسأله تعزيته والتخفيف عنه، لكنه التماس يخفي بين ثناياه أقصى معاني الحزن الدفين والخوف والقلق الذي مبعثه فاجعته التي نزلت عليه كالصاعقة.

ومن الأساليب الإنشائية التي احتفت بها القصيدة كذلك أسلوب الاستفهام، الذي عكس بشكل دقيق حيرة الشاعر وقلقه واضطرابه النفسي، وبحثه الحثيث عن أصغر قشة يمكن أن يتمسك بها وتساعده في الخروج من حالة الضياع وتصل به إلى بر النجاة من بحر التيه متلاطم الأمواج الذي غرق فيه بعد فقدانه أخاه (وكيف يجيبني؟ سألت الحي أين دفنتموه؟ أتغدو يا كليب؟ ...)

كما نسجل حضور أسلوب النداء في القصيدة بكثافة، وهو الأسلوب الذي شكل صرخة ألم نابعة من الأعماق، صرخة في وجه شبح الموت والقدر والإقفار والليل البهيم الموحش، صدح بها للتعبير عن الحزن على الفراق، لكنها كذلك صرخة من العمق لرفض الموت، ونداء شكل محاولة يائسة منه لاستحضار هذا المرثي العزيز على القلب والقريب من النفس الذي غيبه الموت وقضى عليه وأحاله جثة هامدة ساكنة في قبر ضيق. فمازال شاعرنا يصرخ بأعلى صوته والدمعة المنحدرة قد سكنت عينيه ولم تبرحها، يصرخ مناديا أخاه كليبا المبعد قصرا وغدرا وظلما. غير أنها صرخة في واد، إذ في النهاية لا حياة لمن ينادي ولامناص من مخالب القدر المحتوم، عندما يحيط بإنسان، كما تحيط الوحوش الضارية بفرائسها (دعوتك يا كليب فلم تجبني، أجبني يا كليب، أتغدو يا كليب).

إن طبيعة الأسلوب الذي وظفه الشاعر في قصيدته من هيمنة للجملة الفعلية، ومن أمر ونداء واستفهام ونهي (لا تبعد) وغيرها من الأساليب الفنية، قد خدمت إلى حد كبير فكرة الرفض والاحتجاج على واقعة الموت، التي سيطرت على ذهن المهلهل بن أبي ربيعة وعقله، رفض لحقيقة الموت، الذي أخذ أخاه كليبا في لمح البصر.

والمثير في رائعة شاعرنا المهلهل بن أبي ربيعة هذه، أنها جاءت في شكل حوار بين الشاعر وأخيه، أي وكأنه حوار بين الحياة والموت، حيث يبدو ذلك أكثر وضوحا من خلال الضمائر الرائجة التي استعملت في القصيدة، إذ نجدها قد توزعت في المجمل بين الضمير المخاطب، والضمير المتكلم، والضمير الغائب، وإن كانت معظم الأفعال قد وردت إما بضمير المتكلم (بت، أراقب، أصرف، أبكي، نعيت، أبت عيناي،

كنت، أعد قربي، أرى، كأني، فدرت، سألت، سرت، هجري، لست ....) أو بضمير المخاطب (دعوتك، أجبني، سقاك، إنك كنت، بعدك، كنت تحلم، تعفو، تمنع، منك، فلا تبعد....)

والحقيقة أن توظيف هذه الضمائر المنوعة قد ساهم بشكل كبير في تمكين الشاعر من نقل معاناته الدفينة إلى القارئ والمستمع، ومن التعبير عن تجربته الخاصة مع الموت كضيف ثقيل غير مرحب به حل به وأناخ على الصدر إحساسا بالخوف والقلق والعذاب فقتله وملأ القلب ألما ووجعا، وهي تجربة حزينة عنوانها الرفض المطلق للموت والقتل الغادر، الذي حل بأخيه كليب.

رائية المهلهل بن أبي ربيعة إيقاعيا

الموسيقى والدلالة في الشعر وجهان لعملة واحدة، لا يمكن فصلهما عن بعضهما البعض، بل قد نغامر في هذا الصدد إلى درجة الزعم بأن وجود أحدهما مرتبط حتما بوجود الآخر، وفي هذا الباب يذكر لنا الدكتور عز الدين إسماعيل في كتابه الموسوم ب "التفسير النفسي للأدب" قائلا: إن الشعر لا يمكن أن يكون موسيقى فحسب، ولا يمكن فصل الكلمة عن مدلولها...[2] راميا بقوله هذا إلى إثبات العلاقة الجدلية والحتمية بين ما هو وزني إيقاعي، وبين ما هو دلالي معنوي. وقد اختلفت آراء النقاد والباحثين المتخصصين في علم العروض حول هذه المسألة اختلافا كبيرا أسال الكثير من المداد، حيث مازالت القضية قيد النقاش والبحث، بين من يؤيد وجود ارتباط علائقي واضح بين الوزن والدلالة الشعرية، وبين رافض للفكرة تماما ومنكر لها، حيث كل طرف يسوق أدلته وحججه التي تثبت ادعاءه وتؤكد ما يذهب إليه، وتنكر على المختلفين آراءهم.

أما إيقاع هذه المرثية الرائعة الشعري فقد جاء متوائما ومنسجما إلى حد بعيد مع حاجة صاحبها إلى من يفهمه ويشد بيده ويحمل عنه جزءا من معاناته ومكابداته مع مصيبته التي ألمت به ويحمل عنه شيئا من الغم الذي أناخ عليه ذاهبا بعقله ولبه، وجاعلا ليله طويلا لا ينقشع صبحه.

وقفة مع وزن القصيدة

لقد بنى المهلهل قصيدته هذه على بحر الكامل، وهو الوزن الذي سمي كاملا كما ذكر ابن رشيق في كتابه "العمدة"، لأن فيه ثلاثين حركة لم تجتمع في غيره من الشعر.[3] وقد نظم الشعراء العرب القدماء سواء في الجاهلية أم في الإسلام كثيرا من قصائدهم على وزن هذا البحر.

ويذكر حازم القرطاجني في كتابه "منهاج البلغاء وسراج الأدباء" واصفا بحر الكامل قائلا: وتجد للكامل جزالة وحسن اطراد.[4]

---

[2] عز الدين إسماعيل التفسير النفسي للأدب ص 80

[3] العمدة لابن رشيق الجزء الأول ص 239

ولعبد الله الطيب في كتابه "المرشد" كلمة وافية عن بحر الكامل يقول فيها:

بحر الكامل التام ثلاثون مقطعا، ولكنه لا يجيء تاما في الغالب، وهو أكثر بحور الشعر جلجلة وحركات، وفيه لون خاص من الموسيقى يجعله – إن أريد به الجد – فخما جليلا مع عنصر ترنمي ظاهر، ويجعله إن أريد به إلى الغزل وما بمجراه من أبواب اللين والرقة، حلوا مع صلصلة كصلصلة الأجراس، ونوع من الأبهة يمنعه أن يكون نزقا أو خفيفا شهوانيا. وهو بحر كأنما خلق للتغني المحض سواء أريد به جد أو هزل. ودندنة تفعيلاته من نوع الهجير الواضح الذي يهجم على السامع مع المعنى والعواطف والصور حتى لا يمكن فصله عنها بحال من الأحوال، ولهذا السبب فإن الشعراء المتفلسفين أو المتعمقين في الحكمة وما إلى ذلك من ضروب التأمل، قل أن يصيبوا فيه أو ينجحوا. ذلك أن الحكمة والتأمل مهما كانت مناسبتها يحتاجان إلى هدوء وتؤدة، وفي النظم خاصة يحتاجان لأن يكون نغم الوزن شيئا منزويا يصل إلى الذهن من غير جلبة ولا تشويش، وكأنه إطار للكلام الموضوع فيه، لا جزء هام من صورته ورسمه.[5]

فهو إذن وزن مميز وحقيق بالوقوف عنده وعند دلالاته، ولعل العلاقة بين هذا الاختيار وموضوع القصيدة وغرضها، ودلالة حالة الاضطراب النفسي الناتجة عن رفض الموت بعدما أصبح واقعا، التي اجتاحت الشاعر، جلية وواضحة، ذلك أن المهلهل من أجل الانتصار على حالة الضياع والصدمة التي أحاطت به، حاول أن يبدو متماسكا قويا يملك زمام أموره، بل يقرر كذلك. يقرر الأخذ بالثأر والانتقام لأخيه الذي مات مغدورا، فحركة الإيقاع، ومعها ظاهرة هيمنة الأفعال وضمير المتكلم، تنسجم انسجاما دلاليا مع شرارة الغضب التي تطايرت من صدر الشاعر، وكذلك مع رغبته الجامحة في إبادة قبيلة قتلة أخية ثأرا وانتقاما.

روي القصيدة وقافيتها

وقد جاءت القافية في القصيدة مطلقة، وفي هذا إشارة نفسية عميقة إلى طبول الحرب والانتقام الذي أعلن الشاعر عن قرعها في وجه قاتلي أخيه كليبا، ذلك أن إطلاق القافية يعني إطلاق العنان وفتح المجال أمام المشاعر والانفعالات النفسية والعاطفية للانبثاق والبروز إلى الفضاء الإنساني الخارجي بعدما كانت حبيسة الخواطر.

أما روي القصيدة فهو حرف الراء المضمومة، والراء كما هو معلوم حرف صامت مجهور لثوي، يحدث نتيجة طرقة واحدة من طرف اللسان على اللثة، ويصدر الوتران الصوتيان نغمة موسيقية عند نطقه. ويذكر إبراهيم أنيس في كتابه "الأصوات اللغوية" واصفا حرف الراء: والراء صوت مكرر لأن التقاء طرف اللسان بحافة الحنك مما يلي الثنايا العليا يتكرر في أثناء النطق بها، كأنما يطرق طرف اللسان حافة الحنك طرقا لينا يسيرا

---

[4] منهاج البلغاء وسراج الأدباء ص 269

[5] المرشد إلى فهم أشعار العرب الجزء الأول ص 302 - 303

مرتين أو ثلاثا لتتكون الراء العربية. والراء كاللام في أنها من الأصوات المتوسطة بين الشدة والرخاوة، وإن كلا منهما مجرور. فلتكون الراء يندفع الهواء من الرئتين مارا بالحنجرة فيحرك الوترين الصوتيين ثم يتخذ مجراه في الحلق والفم حتى يصل إلى مخرجه، وهو طرف اللسان ملتقيا بحافة الحنك الأعلى فيضيق هناك مجرى الهواء. والصفة المميزة للراء هي تكرر طرق اللسان للحنك عند النطق بها.[6] أما الخليل بن أحمد الفراهيدي في كتابه "معاني الحروف" فيذكر: الراء القراد الصغير، والرجل الضعيف. والراء: زبد البحر أيضا. قال الشاعر:

كأن بنحرها وبمشفريهـــــــا ومخلج أنفها راء ومظـــــــا[7]

وقد ورد حرف الروي مضموما في قصيدة شاعرنا، والضمة عبارة عن تحريك الشفتين بالضم عند النطق بالحرف، فيحدث عن ذلك صوت خفي مقارن للحرف، وإن امتد كان واوا وإن قصر كان ضمة، وصورتها عند حذاق الكتاب صورة واو صغيرة لأنها بعض واو.[8]

ولما كان الانسجام كله، مداره على التنويع والتكرار، فمظاهر التكرار لا تتعدى التكرار المحض والجناس. ومظاهر التنويع لا تتعدى الطباق والتقسيم. فهذه هي الأصناف الأربعة التي يقوم عليها رنين البيت بعد الوزن والقافية.[9] لذلك فمن حيث الإيقاع الداخلي يشد نظر القارئ المتأمل لقصيدة "أهاج قذاء عيني الإذكار" حضور التكرار المراد به تقوية النغم، أو ما يسمى بالتكرار النغمي، الذي يقوم على تكرار شطر البيت كله أو لفظة من ملفوظاته عددا من المرات في المتن الشعري، حيث نسجل تكرار شطرين في قصيدة المهلهل مرتين، وذلك في قول الشاعر:

أجبني يا كليب خـــــلاك ذم ضنينات النفوس لها مـــــزار

أجبني يا كليب خـــــلاك ذم لقد فجعت بفارسها نـــــزار

وفي قوله أيضا:

أتغدو يا كليـــــب معي إذا ما جبان القوم أنجاه الفـــــرار

أتغدو يا كليـــــب معي إذا ما حلوق القوم يشحذها الشـــفار

---

[6] إبراهيم أنيس الأصوات اللغوي ص 57 -58

[7] ثلاثة كتب في الحروف، للخليل بن أحمد، وابن السكيت، والرازي ص 38

[8] نتائج الفكر في النحو، أبي القاسم عبد الرحمان بن عبد الله السهيلي ص 67

[9] المرشد إلى فهم أشعار العرب الجزء الثاني ص 58

هذا وقد تكرر اسم كليب في القصيدة ست مرات، ولفظ الليل ثلاث مرات، ولفظ العين أكثر من مرة كذلك (عيني، عيناي، مقلتي...) أما الأفعال، فقد تكرر منها في القصيدة (صار، يصير، صاروا، فلم تجبني، يجيبني، أجبني، دار، درت، دارت، يستدير...).

وقد أدى هذا التكرار دورا مهما تمثل في تقوية المعنى والصور والمشاهد، وكذلك ساهم في إثارة شعور المتلقي وشد انتباه السامع وجعله في صلب موضوع الأزمة، التي تقلق الشاعر وتعصف به، علاوة على أنه أضفى نغما وإيقاعا موسيقيا جميلا منسجما إلى حد الانصهار مع رنين سطوة الحزن والألم، الذي يجتاح الذات الشاعرة ويقذف بها في بحر الليل الطويل، الذي لا ينجلي ولا يظهر إصباحه.

إن حالة التيه والصدمة التي ألمت بشاعرنا إثر موت أخيه غير المتوقع، قد جعلت بكاءه الحار يستحيل قولا شعريا جميلا وحسنا تطرب له الأذن وتحترق له المشاعر والقلوب، لقد شكل نوعا من النغم والموسيقى الطاهرة العذبة، التي تشد الأسماع، وتتأثر بها الأذهان والنفوس، ولعل من مظاهر هذا الجمال اللفظي والمعنوي في قصيدتنا، حضور ظاهرتين من أهم ظواهر البديع، وهما الجناس والطباق، فالجناس تجلى في مثل (مزار/ نزار، يجير/ يجار...) أما ظاهرة الطباق فقد تمثلت بالأساس في موضوعة الليل والنهار، التي تكررت كثيرا وفي أكثر من موقع في القصيدة، وهي توحي رمزيا ودلاليا بحقيقة ما يضطرم ويتفاعل في دواخل الشاعر ونفسيته من عراك مرير بين القبول بالواقع ورفض هذا الواقع، أي بين الموت التي صارت حقيقة مطلقة ممثلة في فقدانه أخاه كليبا، وبين الحياة المنتهية التي لم يستسغ ذهابها فجأة، ويسعى إلى استرجاعها وبثها من جديد في الجسد الثاوي في قبره، فالليل هو الحزن، وهو الذكرى الأليمة، وهو كذلك كتلة الظلام السديمية، التي خيمت على حياة المهلهل، وذهبت بعقله، وعصفت بنفسيته، وأدخلته عالم الضياع، وهو كذلك شحنة مضغوطة من الحقد والكراهية والشر المتطاير يستحيل تفكيكها، حقد متولد سيغدو عنوانا بطوليا للحرب وملحمة الثأر التي سيكرس الشاعر كل حياته لها. أما النهار فهو الأمل في الحياة الجديدة، وهو السعادة المنشودة، وهو أيضا الرفقة والأخوة المفقودة، لقد أضحى قدوم النهار بهذا المعنى مستحيلا وبعيد المنال، ما جعل الليل يسيطر ويهيمن على القصيدة وعلى حياة الشاعر أيضا.